فصلية النّقد و الأدب المقارن (بحوث في اللّغة العربيّة و آدابها)
كلّيّة الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة رازى – كرمانشاه
السّنة الأولى، العدد ۴، شتاء ۱۳۹۰ هـ.ش/ ۱۴۳۳ هـ.ق/ ۲۰۱۲ م، صص ۱۲۹-۱۵۱

جماليات التغزّل بالرموز الأنثوية في الشعر الجاهلي*

الدّكتور يحيى معروف
أستاذ مشارک في قسم اللّغة العربية و آدابها، جامعة رازى – كرمانشاه
عاطى بيات
الطالب بمرحلة الدّكتوراه، في فرع اللغة العربية و آدبها، جامعة رازى

الملخّص

حفلت النصوص الشعرية الجاهلية بالكثير من الأقنعة تحوم إيحاءاتها حول المرأة ورموزها الأنثوية الأخرى، فأخذت هذه الايماءات والرموز الشعرية تمثل رؤية تاريخية وصفة للمرأة التي أخذت طابعاً دينياً وأسطورياً أضف اليها بُعداً جمالياً مِن خلال تشبيهها بالمعطيات الطبيعية وانتزاع صورتها للمرأة المثال، الحافلة بالأسرار والإشارات التي حملت في طياتها معاني الخصب، والبعث والنقاء والجمال وغير ذلک من الإيماءات. فهذا المقال يحاول تحليل الرموز اللائذة والدلالات الكامنة وراء تغزل الشاعر بالكون وعناصره في النص الأدبي وتحليلها.

الكلمات الدّليلية: الشعر الجاهلي، الرّمز، المرأة، الشّمس، القمر، الظّبي، الحمام، النّخل، النّاقة، اللّون.

---

* - تاريخ الوصول: ۱۳۹۰ /۷/۱۹ تاريخ القبول: ۱۳۹۰/۱۱/۲۵
العنوان الإلكتروني للكاتب المسؤول: Ymaerof@razi.ac.ir

Archive of SID
www.SID.ir

١. مقدّمة

اتصل الشاعر الجاهلي بالكون وعناصره اتصالاً وثيقاً، وتفاعل معه بكل ظواهره ومظاهره وأقام علاقة وجدانية معه أساسها الحس والانفعال وأظهر ولاءه للكون وعناصره التي يزخر بها شعره وأصبح له الكون وبما فيه كالأمّ التي تعطيه كل ما تستطيع وراح يستقي رموزه وتشبيهاته واستعاراته من جماله وألوانه. فالشاعر الجاهلي بسبب رهبة الموت وما يوؤل اليه من دمار وهلاك اتّجه الى إجلال وتقديس عناصر الكون التي تهب الحياة فأخذ يضفي من صفاتها على ممدوحه [المرأة المثال] لصرف أنظاره عن مصيره المحتوم وإيجاد مخرج في مواجهة التناهي نحو الخلود. ومن هذا المنطلق تشكّل المرأة ورموزها الأنثوية الأخرى، قوام الطبيعة والكون، فكأنّها هي الطبيعة بعينها، تأخذ منها مكوناتها الشكلية لتعطي صورة موحية ولعل هذا يفسر رمزية الاندماج بين الشاعر العاشق ومظاهر الكون من حوله. وعلى ضوء ذلک اكتسحت المرأة مساحة كبيرة من حياة الإنسان الجاهلي وبلغت مكانة سامية لديه أفرزتها المُؤثرات الميثولوجية والمعتقدات الدينية حتى حازت على التقديس والعبادة والإجلال. فجاءت صورتها في الغزل الجاهلي حاملة ملامح المرأة المثال الموحية بها. ومن الأنماط الشعرية التي تكرر في الشعر الجاهلي صورة المرأة بأبعادها الرمزية والتي احتلت حيزاً واسعاً من القصيدة العربية كونها برموزها الأنثوية المتعددة ترمز الى الإخصاب. وإنّ بذرة الحياة وتكاثر النسل تختبيء فيها «فمن جسدها تنشأ حياة جديدة، ومن صدرها ينبع حليب الحياة...وخصبها وما تفيض به على أطفالها هو خصب الطبيعة التي تهب العشب معاشا لقطعان الصيد، وثمار الشجر غذاء للبشر...لقد كانت المرأة سرّا أصغر مرتبط بسرّ أكبر، سرّ كامن خلف كل التبديات في الطبيعة والأكوان، فوراء كل ذلک أنثى كونية عظيمة هي منشأ الأشياء،ومردّها،وعنها تصدر الموجودات، وإلي رحمها يؤول كل شيء كما صدر» (السواح،١٩٩٦ : ٢٠٧) وقد تحولت صورة المرأة على يد الشاعر الجاهلي تحولا جذريا،فمن ميثولوجيا مطللقة عند الشعوب القديمة الى بديل الأسطورة متخيلة لاتبتعد عن الواقع، في الوقت الذي تربط فيه تلک الجذور الأسطورية القديمة. وعلي هذا الأساس ثلة من عناصر الطبيعة، تحولت من صيغتها الوصفية التقليدية الى صيغ إيحائية، استوعبت الكثير من القيم الرمزية وفاضت بدلالاتها. فهذا المقال يحاول الأجابة عن الأسئلة التالية: ١-كيف تبلورت رمزية التغزل بالأجرام السماوية من قبل الشاعر الجاهلي؟ ٢- ماهي مدلولات الغزل الرمزي بالطبيعة الصائته والصامته ومامدى الأرتباط بينها و بين المرأة المثال؟

Archive of SID

www.SID.ir

لقد حاول الكثير من الدراسين- قديماً وحديثاً- الوقوف أمام ظاهرة التغزل الجاهلي، باذلين في ذلک جهدا مشكورا ومضيفين الى التراث الأدبي لَبنات غنية ومضيئين لكثير من جوانب هذه القضية، والمحاولة التي تقوم بها هذه الدراسة لاتعدو أن تكون وجهة نظر مجتهدة في تفسير هذه الظاهرة، وتعترف بجهود السابقين وتقدرها حق قدرها. ولكنّها تنبعث من الظن بأنّ مجال الدراسات الأدبية يتسع لأكثر من وجهة نظر،لأنّه لايعرف التفسير الوحيد أمام قضاياه المثارة. فكل وجهات النظر حول موضوع معين تعتبر نوافذ متعددة يمكن النظر من خلالها إليه من زوايا مختلفة، تساعد على بلورته وإنضاجه. ومن أهم الدراسات في هذا المجال دراسة فيصل شكري «تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من إمرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة» وأحمد الحوفي «الغزل في العصر الجاهلي» و عدنان غزوان « المرثاة الغزلية في الشعر العربي» فهذه الدراسة المتواضعة التي نحن بصددها ما هي إلاّ محاولة حديثة لقراءة متأنية لظاهرة التغزل بالعناصر الكونية المتجسدة في المرأة المثال، والكشف عن منطلقات الشعراء في تناولها في العصر الجاهلي. ونحن على قناعة بأنَّ هذه المواضيع وما تؤول إليه تستوجب قراءة فاحصة أو كفاءة معرفية لتحليل أبعادها وتجلياتها.

۲. عرض الموضوع

۲-۱. رمزية التغزل بالأجرام السماوية

الشاعرالجاهلي في تغزله للمرأة عمل على تحويل الصيغة الوصفية التقليدية لهذه العناصر الى صيغ إيحائية، استوعبت القيم الرمزية وفاضت بدلالات تتناسب مع إحساس الشاعر ومايرمي إليه.

۲-۱-۱. الشّمس وقيمتها الرمزية

الشمس إحدى مظاهر الطبيعة في حياة عرب الجاهلية، دفعت الشاعر الجاهلي إلى أن يرسم لها صوراً مختلفة حاول أن يربطها بالواقع، وجاء بصور متنوعة لها من حيث أهميتها الى أن وصل به الأمر الى تأليهها وتقديسها حتى نهى ا... عز وجل فيما بعد عن تقدسيها بقوله: «لاتسجدوا للشمس ولا للقمر» (فصلت/۳۷) وهكذا ارتبطت المرأة عند الجاهليين القدماء بنوع من العبادة الغامضة التي ترمز الى تقديس الخصوبة والنماء، والشعر الجاهلي مليء بالصور الكثيرة التي تتحدث عن رحيل المرأة الذي يؤدّي الى خراب الديار وإقفارها، و ربطوا بينها و بين الشمس، والشمس كانت معبودة، وكان رحيلها يؤدي الى إقفار الديار، إذ هي رمز الخصب عند الانسان، لأنّها لاحقة بحياة الزراعة (فيليب، ۱۹۴۹: ۱۳۵/۱) ويذكر نيلسن أنَّ العرب في الجاهلية قد صوروا الشمس إنساناً على هيئة امرأة حسناء عارية (حسنين،۱۹۵۸: ۲۱۹) ومن هنا تتجلى رمزية

Archive of SID

www.SID.ir

ارتباط الشمس بالمرأة وأن توظيف الشمس في الشعر الجاهلي لصورة المرأة المثال حملت في طياتها عناصر التقديس أكثر من أي شئ. فيعتبر طرفة بن العبد من الشعراء الأوائل الذين خصص مساحة لا يستهان بها عن ثغر المحبوبة وأسنانها، فلم يختصر وصفه على الأسنان فقط، بل رأى أنَّ الشمس هي صاحبة الخلق والإبداع والجمال للإنسان، فكانت نظرة الشاعر نابعة من رواسب أسطورية قديمة حيث كانت من عادة الجاهليين أنَّ الصبية إذا سقطت أسنانها تأخذها وترمي بها في الشمس، ويطلب صاحبها من الشمس أن تبدلها سنا أجمل لتكون بيضاء وهذا المعني ما أراده طرفة بقوله:

بَدَّلتهُ الشّمسُ من مَنبتِه برداً أبيضَ مصقولُ الأشُر[١]

وإذا تضحک تُبدي حبباً کرضابِ المسکِ بالماء الخصرِ

(طرفة بن العبد، ١٩٨٧ :١٦٨)

فارتباط الأسنان بالبياض يدل على سلامة وطهارة وحسن جمال صاحبها كما ارتباطها بالشمس يدل على لمعانها ونصاعتها و لمعان الشمس المزود بالخصوبة ودفء الحياة. فالشّمس في هذا المقام عند طرفة ترمز إلى التغيير والتبديل. و قد جمع الأعشي صور للحواس الخمسة في تغزله للمرأة المثال بقوله:

بيضاءُ ضحوتها وصف راءُ العشية کالعرارةِ

وسبتک حين تبسَّمت بين الأريكة و الستارة

بقوامها الحسن الذي جَمَعَ الدادةَ و الجهارة

(الأعشى، لا.ت:٢١٢)

فالمرأة في هذه المقطوعة ناعمة مدلَّلة وهي رمز واضح للشمس ولعل صورتها وهي بيضاء بالضحي وصفراء بالعشي مما يوَثّقُ ارتباطها رمزياً بالشمس و أصبغ الشعراء اللون الأبيض على معشوقاتهم اللواتي كالشمس وبذلک أرادوا الترميز على عفاف المرأة وشرفها وجمالها الأنثوي وطيب رائحة فمها ليطيب للشاعر اللهو معها دون تكدير وهذا ما جسّده قول الشاعر:

بيضاءُ کالشّمسِ وافت يوم أسعدها لم تُؤذ أهلاً ولم تفحش على الجارِ[٢]

(الذبياني،لا.ت:٣٨)

ويصف الشاعر قيس بن الخطيم محبوبته بالشمس ويضفي عليها اللون الأصفرالدال على جمال ونقاء محبوبته الرامز لصفته القداسة التي تقربها من آلهة الأُم (الشمس).

www.SID.ir

فرأيتُ مثلَ الشّمسِ عندَ طُلُوعِهَا في الحُسّنِ أو كدُنُوِّها لِغُرُوب
صفراءُ أعجَلَهَا الشّبابُ لِدَاتِها مِوَسومةٌ بالحُسّنِ غيرُ قطوبِ[3]

(قيس بن خطيم،لا.ت: ۵۷)

وتأتي الشمس تارةً صورة للجمال والعفاف «للمرأة المثال» في قول الطفيل الغنوي:

عروبٌ كأنَّ الشمسَ تحتَ قناعِهَا إذا ابتسمت أو سافراً لم تَبسّمِ[4]

(الغنوي، ۱۹۶۸: ۷۵)

أو مشعة في قول امرئ القيس:

برهرهةٍ كالشّمسِ في يومِ صحوها تُضئ ظلامَ البيتِ في ليلةِ الدُجى

(امرؤالقيس، ۱۹۹۸: ۳۲۰)

لذلک تنوعت اللوحة الشمسية عند شعراء الجاهليين فكانت معظم صورهم نابعة من الترسبات الأسطورية والمعتقدات الدينية ممثلة بالعنصر الأنساني والحيواني كما بنيت على قواعد متينة أهمها «المرأةُ» التي رمزت للشمس المعبودة والتي تلونت بألوان مختلفة تحمل في طياتها معاني النقاء والصفاء والطهروجمال المرأة ومفاتنها.

۲-۱-۲. القمر وقيمته الرمزية

لفت القمر منذ زمن بعيد نظر الشعراء الجاهليين فأثار دهشتهم وسحرهم بفتنته وجماله فأستحوذ على إحساسهم وفجَّر فيهم مشاعر غامضة، تموج بالإعجاب والإثارة فتفاعلوا معه باعتباره جزءاً لا يتجزء من الطبيعة وعنصراً مهماً منها وأصبح القمر في التجربة الشعرية والشعورية للشاعر الجاهلي يتلون بانفعالات الشاعر ورؤيته. فالصورة القمرية في النصوص الجاهلية كانت مستمدة من الرواسب الميثولوجية والمعتقدات الدينية وقد نجح الشاعر الجاهلي في المزج بين القمر والعناصر الطبيعية الأخري في الحصول على تشكيلة دلالية واضحة المعالم. فلم يكن القمر مجرد عنصر من عناصر الطبيعة عند العرب الجاهلي، بل تجاوز مكانته كظاهرة طبيعية الى ظاهرة قُدسية تُعبدُ وتقدم لها القرابين. وتحدثت النصوص القرآنية عن عبادة القمر في أكثر من موضع. فالقمر بخلاف الشمس كان يرمز الى صورة الرجل المثال، بينما الشمس كانت ترمز الى صورة المرأة المثال. وقد عُدّ انحرافاً وميلاً عندما اعتبر الأسود بن يعفر النهشلي ارتباط المرأة بالقمر في قوله:

والبيضُ تمشي كالبُدُورِ وكالدُّمَى ونواعمٌ يمشينَ بالإرفادِ[5]

(النهشلي،۱۹۷۰: ۲۹)

Archive of SID

www.SID.ir

فاللوحة القمرية في الشعر الجاهلي انعكست فيها مظاهر جمّة للقمر وتغلباته فأصبح مرّة رمزاً للتعبد والتقدس ومرّةً للجمال ومرّةً للحرب، ومرة للمدح والفخر و...أما الصورة الطاغية في فضاء النصوص الشعرية كانت من نصيب الصورة الغزلية. وأن ترددت صورة القمر في الشعر الجاهلي للرجل المثال، فهناک صورة قمرية مختلفة تحدثت عن المرأة المثال.فَوظّف الشاعر الجاهلي القمر وتغلباته لإبراز الجوانب الجمالية للمرأة المحبوبة المثال.

فهذا عنترة الذي يصف محبوبته بالبدر التمام المحاطة بهالة من التقديس والتعظيم، يستمد صورتها من رواسب أسطورية ودينية سحيقة ترسخت في مخيلته. فيقول:

وبَدَت فَقُلت البدرُ ليلةَ تمِّه قَد قَلَّدَتهُ نجُومُهَا الجوزاءُ

سَجَدَت تُعظِّمُ رَبَها فَتَمايَلَت لِـــجلالها أربابُنا العُظماءُ

(عنتره بن شدّاد، ۱۹۹۵: ۹)

يرسم النابغة الجعدي لمحبوبته المرأة المثال صورة مشعة في ليلة حالكة يهتدي بها السائر، فيظهر بذلک نورها موازياً لنور القمر:

غرّاءُ كالليلة المباركة القمر اءِ تهدي أوائلَ الظُّلَمِ[۶]

(الذّبيانى،۱۹۶۵: ۱۵۴)

تارة يعمد الشاعر الى وسيلة مغايرة لإبراز جمال محبوبته بصورة لافتة تُثير الإنتباه وهذا ما فعله عنترة عندما أتهم، بأنَّ البدر سرق حُسن محبوبته والظباء استعارت جمال عيونها منها بقوله:

سَرَقَ البدرُ حُسنَها واستعارت سِحرَ أجفانِهَا ظِباءُ الصَّريمِ

(عنتره بن شدّاد، لا.ت:۱۲۰)

ويرد رمز القمر في شعر عبدالله بن عجلان النهدي للمرأة التمثال صورة دينية تحمل في طياتها معاني الجلال والجمال ودلالات مقدسة، ترفع من مكانتها الأرضيّة وصولاً إلى مكانتها السماوية.

قَد طالَ شَوقِي وعَادَني طَرَبِي مِن ذكرِ خُودٍ كريمَةِ الحَسَبِ[۷]

غراءُ مِثلُ الهلالِ صورتُها أو مِثلُ تمثالِ صُورةِ الرَّاهبِ

(الأصفهاني،لا.ت ج۲۲: ۲۳۶)

وهكذا يظل القمر عنصراً مهماً وفاعلاً في تجربة الشاعر الجاهلي مع محبوبته (المرأة المثال) لاسيما أنَّهُ اقترن بقيمها الجمالية، وأصبح معياراً مهماً في تقييمه، وملاذاً واسعاً يبوح فيه المُحبّ ما

Archive of SID

www.SID.ir

يتردد في حناياه من حُبٍّ وشوق وإن تعددت دلالاته المتغايرة ولكن الدلالات الطاغية للقمر كانت دوماً ترمز الى جمال المرأة وحسنها وأشراقها.

۲-۲. رمزية التغزل بالحيوان

۲-۲-۱. رمزية التغزل بالظبية

ارتبطت صورة الظبية في الشعر الجاهلي برمزية المرأة المثال في ملامح الحسن الأنثوي المثالي كالنعومة والجمال والبياض، كما ارتبطت ببعض الرموز العشتارية المقدسة ذات الاشعاع الإخصابي. فالأمومة وما تدلُّ عليه من الخصب في الظبية لم تكن من باب إبراز الصفات الجمالية للمرأة بل جاءت معادلاً موضوعياً للمرأة الأم وإن كانت الظبية من أجمل الحيوانات في الطبيعة. ولذلک أخذت الظبية أو الغزالة في الشعر الجاهلي طابعاً دلالياً وجمالياً يرمز الى الأم والحبيبة المنشودة. فتنوعت دلالات توظيفها في الغزل الجاهلي ومنها: توظيف البعد الأمومي المفعم بالحنان الغامر كما نلمسه في قول عبيد بن الأبرص:

واذا هي حوراءُ المدامع طفلة كمثل مهاة حُرَّة أُم فرقدِ

(عبيدبن الأبرص،لا.ت:۵۲)

وفي قول طرفة بن العبد:

ولهـــا كشحـــاً مهـــاةٍ مُطفـــلٍ تقتري بالرمل، أفنان الزهر

(طرفة بن العبد،۱۹۹۲: ۹۶)

وفي قول عبيد بن الأبرص:

و ظباءٌ كأنَّهن أباريقَ لجين تحنو على الأطفال

(عبيد بن الأبرص، لا.ت: ۱۰۴)

فالدلالة بين الظبية ذات الولد والمرأة الحبيبة هي رابطة الأمومة.

أمّا البعد الجمالي:

فحفلت هذه الدلالة بمعاني الجمال والطُّهر والنُقاء للمرأة المثال. كما جاء في قول امرئ القيس:

تَصُدَّ وتُبدي عن أسيل و تتقي بناظرةٍ من وحش وجرةَ مُطفلِ[۸]

وجيدٍ كجيدِ الرَّئملیس بفاحشٍ إذا هي نصتهُ و لا بِمُعطَّل

(امرؤالقيس،۲۰۰۲: ۴۸)

Archive of SID

www.SID.ir

فجاءت الصورة تحمل في طياتها الدال الأنثوي المطبوع للمرأة المثال،المتجسد في الخد الناعم والجيد الأتلع والعينين المتألقتين اللتين تأسِرُ قلب المرهف العاشق. كما أيضاً حملت البعد الرامز للأمومة الحيوانية، للمرأة المثال بالضبية الحانية على طفها.

و البعد الإخصابي:

هذه الدلالة نلمسها في قول امرئ القيس الذي شَبَّه بعر الآرام في ديار محبوبته، بحب الفُلفُل، فعناية الشاعر منصبة على الفكرة الإخصابية، من خلال الحبوب والبذور الأولية، التي ينبثق منها مظاهر الخصب النباتية. كما حفلت أيضاً بالطُهر والنقاء المتمثل بعذرية الرئم الرامزة للمرأة المثال. كما جاء في قوله:

تَرَى بَعَرَالارآم، في عرصاتِها وقيعانِها، كأنَّهُ حَبُّ فُلفلِ

(نفسه: ۴۵)

ومن البديهي أنّ تشبيه المرأة بالظبية يكمن وراءهُ رمز جلي وهو«الأمومة» وما يترتب عليه من معاني الخصب والإزدهار فهذه الصفة الجمالية استفزت الشعراء الجاهليين وأصبح التعبير عنها من المظاهر البارزة في شعرهم فراحت الظبية في شعرهم تدلُّ على الأمومة المتمثلة بالمرأة المثال ذات الابعاد الدينية والجمالية.

۲-۲-۲. الناقة

لم تكن الناقة مجرد حيوان في العصر الجاهلي،فقد احتلت مكانة سامية عند العرب بلغت حدَّ التقديس وعرف العرب فيها معاني الخصوبة والورود والسقيا. قال ا... تعالى «ناقة ا... وسُقياها» وشبهوها بالمرأة «وقالوا في القلوص إنَّها الشابة من الإبل، فنعموها كما تنعم الفتاة الكعاب» (الطيب،۱۹۷۰،ج ۳: ۱۱) فاقتران المرأة المثال بالناقة رمزياً يتضح أكثر عندما ترحل الحبيبة ديارها وتنأي عنها لأنَّ الشاعر يجد فيها ملاذاً آمناً تعمل على انتشاله من همومه وأحزانه وكأنَّه أمّ تحتضنه وترعاه، وهذه العلاقة الوجدانية بين الشاعر والناقة انعكست تماماً على المرأة، فراح الشاعر الجاهلي يجد فيها حضناً دافئاً يأويه ويحميه.وهذا مايتضح في قول ثعلبه بن صغير المازني:

فبنت عليه مع الظلام خباءُها كالأحمسية في النصيف الحاسر

(نقلاً عن: الناصف،۱۹۵۸: ۹۶)

Archive of SID

www.SID.ir

حيث شبّه الشاعر ناقته بالنعامة التي تبسط جناحيها على البيض في الظلام خشية عليه، وهذا الأمر إن دَلَّ على شئ فانّما يدُّل على صورة المرأة المثال الأم التي ترعي من في حوزتها، حفاظاً على استمرارية الحياة.وكما غدا صدي هذه المرأة البديلة في قول امرئ القيس:

فهل تُسلين الهَمّ عنک شملةٌ مداخلةٌ صُمُ العظام أَصُوصُ[9]

(امرؤالقيس، ۲۰۰۲: ۱۲۷)

وفي قول عبيد بن الأبرص:

وقد أسَلِّي هُمومي حين تحضُرني بحسرةٍ كعلاةِ القين شِملال

(عبيدبن الأبرص، لا.ت:۱۰۱)

لقد «فتنت الناقة الشاعر الجاهلي فتنة بعيدة فوقف يتأملها ويردد بصره فيها ويتحدث عن علاقتها بِهِ وموقفه منها، ويفيض في الحديث عنها في أحوالها جميعاً أطراف الليل وآناء النهار، وكأنّما هو يتغزلُ بها» (رومية،۱۹۷۵: ۶۲).

۲-۲-۳. البقرة؛ النعجة؛ العين؛ المرأة

لقد احتلت (البقرة/ النعجة) مساحة هائلة من الشعر الجاهلي وأضفت على النص الجاهلي بعداً دينياً وأمومياً فأصبح توظيف الشعراء لها مُنصباً على البعد الاخصابي والأمومي المتمثل بالمرأة المثال. وهذا ما عثرنا عليه في قول امري القيس:

هما نَعجتانِ من نعاجِ تَبَالةٍ لدي جؤذرين أو كبعضِ دُمي هَكِر [10]

(امرؤالقيس، ۲۰۰۲: ۹۷)

و كما جاء في قول شاعرآخر:

بها العينُ والآرامُ ترعى سخالها فطيمٌ ودان للفِطام وناصف

(أوس بن حجر،۱۹۷۹ :۶۸)

فجمع الشاعر بين النعجة والمرأة المثال بصورة رامزة تحمل في طياتها العطف الامومي والخصب الحيواني. ولم يكتفِ الشاعر بالصورة الأمومية بل عَرّج الى صورة أكثر عمقاً نابعة من ترسبات دينية قديمة حين رَبَطَ بين النعاج المقدسة والعذاري المكرمة التي حَمَلَ هذا الربط دلالات عَدّة. منها: الطهر-العفاف- والصون، حيث يقول:

فبينا نعاجٌ يرتعين خميلة كمشي العذاري في الملاءِ المهدَّبِ

(نفسه: ۶۹)

Archive of SID

www.SID.ir

وكما ورد ايضاً في قول الذبياني حيث شبّه النساء العابدات بالنعاج المقدسة:

لا أعرِفن ربرباً حُوراً مدامعُها كأنَّ بكارَهَا نِعاجُ دوّار

(الذّبياني، لا.ت:۴۳)

وهكذا أصبح توظيف البقرة للمرأة المثال لم يختصر فقط على الجانب الأمومي، بل شَمَلَ جوانب عدّة منها: جمالية ومنها دينية ومنها اخصابية ولكن الجانب الأمومي المتحمل بالدلالات الحياتيه كان أكثر حضوراً وفاعلية في القصيدة الجاهلية.

۲-۳. رمزية التغزل بالطير

أفرز حضور الحمامة في الشعر الجاهلي معانٍ سامية مرّدها الحب والصبوة وكان له علاقة وطيدة بموضوع العشق، فارتبط هذا الحضور بالمرأة المثال، وكان صورة مستوحاة لها، كما تجلت إفرازته على الصعيد العاطفي المتمثل بالحب وتجربة العشق ومايخلفه من ترح وفقد نتيجة للظروف السائدة فاكتسب هذا التوظيف من قبل الشاعر بعداً أمومياً وبعداً عاطفياً نابعة من تراكم الترسبات الأسطورية والمعتقدات الدينية القديمة، ذلك أنها «الطائر المقدس للربة أفروديت ألهة الجمال النسوي وربة العلاقات الجسدية، لما لَهُ من صبوات غزلية لفتت نظر الإنسان من أقدم العهود، كما أن بين الحمام والساميين علاقة حميمة ظهرت في نظرة السامة القديم الى هذا الطائر الوديع حين جعلته أساطير الطوفان السامية، الدليل الذي بَشَّر بالأرض اليابسة وانحسار الماء» (البطل،۱۹۸۳: ۷۹) والعلاقة التي تربط الشعراء بالحمامة لها دلالات رمزية ومنها دلالة الترميز للمرأة المثال كما ورد في قول لبيد عندما شَبَّه النساء الراحلات المتقاطرات، بالحمام الأمومي في رحيلهن وجمالهن، قبل أن يغدوالحمام من اعشاشه:

كأنَّ سراعها مُتوتراتٍ حمامٌ باكرٌ قبل الحمامِ

(لبيد بن ربيعة،لا.ت:۲۰۴)

كما تطورت الدلالة الرامزة من البعد الأمومي المتسم بالخصوبة الى دلالة ترمز الى الحزن والفراق ونعي الاحبّة والرّفاق، وامتاح الشاعر دلالات الحزن تلك من القصة الخرافية، التي تحكي:«أنَّ فرخ حمام يدعي« هديلاً» قد فقد على عهد طوفان نوح،فكل الحمام يبكي عليه وينابديه، وهذه القصة من قبيل الأساطير التفسيرية، التي تعلل صوت الحمام وترجيعه الحزن» (البطل،۱۹۸۳: ۸۰) و قد حاكي الشعراء الجاهليون تلك المواقف الأسطورية في بعض صورهم الشعري التي خلقت من الحمامة رمزاً لبكاء وندب المرأة المثال كما جاء في قول النابغة الذبياني:

Archive of SID

www.SID.ir

بكاءُ حمامة تدعو هديلاً مفجعةً على فنن تغني

(الذّبياني، لا.ت:۲۱۶)

وقول عنترة بن شدّاد:

سأندبُ حتّى يعلمُ الطير أنّني حزينٌ ويرثي لي الحمام المفردِ

(عنتره بن شدّاد، ۱۹۹۵: ۱۸۶)

وقول حاجز الأسدي:

تَبكيهُم شَجَو الحمامة بعدما ارحت ولَم ترفع لهم منک إصبع

(نقلاً عن: الصفدي، ۱۹۷۴، ج ۲: ۲۱۳)

فكانت الحمائم الناعية، والطيور الباكية، ترجمان الألم العميق الذي اجتاح خلجات القلوب، كما أخذت صورة الحمام ترمز الى الشوق والحنين كما ورد في قول النابغة الذبياني:

اذا تغنى الحمامُ الورقُ هيّجني و إن تغربت عنها ام عمار

(الذّبياني، لا.ت: ۲۰۱)

وترفعت صورة الحمامة في آخر المطاف من البعد العاطفي المتمثل (بالشوق والحزن) الى صورة للتحدي،كما نلمسها في قول حاتم الطائي:

فأقسمتُ لا أمشي الى سرجارةَ مدي الدهرِ مادامَ الحمامُ يغردُ

(نقلاً عن: الصفدي، ۱۹۷۴، ج۳: ۳۵۴)

خلاصة القول إنَّ اللمحة الحمامية أوحت برموز كثيرة كلها تَصبُّ في خانة(المرأة المثال) واتسعت دائرتها شملت الابعاد الرمزية كعنوان للمأوى والأمومة والخصب والعشق والحزن والبكاء ثم رمزاً للتحدي ورمزاً للألفة والمعاشرة ورمزاً للجمال المتمثل بعنقها.

۲-۴. رمزية التغزل بالشجر والنباتات

كانت حياة العرب قائمة على الترحال والبحث عن الكلأ، فأخذت العرب تتعلق بكل ما لهُ صلة بالحياة، يتأملونه ويضفون عليه سمة التقديس،والنخلة شجرة مباركة مقدسة عند العرب وعبدت الساميين«واعتبرها المصريون القدماء والسُّومريين والتاويين في الصين، شجرة الحياة، ترمز الى الانجاب والخصوبة» (الجوهري،۱۹۸۰، ج۲: ۵۹۴) فقد« كان أهل نجران يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد في كل سنة، اذا كان ذلک العيد علقوا عليها كل الثوب وجدوه، وحلي النساء، ثم خرجوا إليها، فعكفوا عليها يوماً» (ابن هشام،لا.ت، ج۱:۳۳) والذي يربط

Archive of SID

www.SID.ir

المرأة بالنخلة رمزياً هما: التلقيح والرأس. فالنخلة لاتثمر الا بالتلقيح والمرأة كذلک، وثانياً: لو قطع رأس النخلة لهلكت وكذلک الانسان. فليس عبثاً إنَّ العرب كانوا يرمزون بالنخلة للحبيبة بوصفها رمزاً للخصب والبركة. وفي ذلک يقول امرؤالقيس:

وفرعٍ يُغشيِّ المتنَ اســـودَ فاحمٍ أثيث كقنو النّخلة المتعثـــكل

غدائرُها مُستشزراتٌ الى العُلا تضلُّ العقاصُ في مثنّي ومُرسَلِ

(امرؤالقيس،۲۰۰۲ :۶۷)

فيشّبه الشاعر في صورة فنية رائعة، كثافة الشعر الاسود للمرأة بعذق النخلة كثير الثمر، ويحمل هذا التشبيه في طياتها قيمة الخصوبة، ممثلة في الكثرة، التي احتوتها قنوان النخلة من التمور النافعة. واللمسة البيانية في كلمة «أثيث» تعطي بعداً أخصابياً آخر:«فالسواد مرتبط في التراث العربي بالأخضرار والخصب ويلحظ استخدامه كلمة «أثيث» لوصف الشعر وتعني الكثير النبات، فتغدو المرأة هي الأرض المخصبة الخضراء، وشعرها النخلة المتداخلة جذورها، رمز الحياة والخصب. والشعر الكثيف الاسود صورة جنسية ذات دلالات توحي بالحيوية والطاقة المخصبة، ترتبط بصور الثبات والشجر والاخضرار، وتوحي غدائر الشعر بالغدران، فتكثف صورة المياه الجارية الإيحاء بأجواء الحيوية المتدفقة» (عوض،۲۰۰۸: ۲۰۴) ولذلک ذكرت النخلة مع المرأة تعزيزاً لهذا الرمز وتقوية لها. فالمرقش الأكبر ذكر اسماء وشَبَّه ظعائنها بالنخل فقال:

ديـــارُ اسمـــاءَ التي تَبَـــلَت قلبي فعيني ماؤها يسجُم

أضحت خـــلاءً نبتُها ثَئدٌ نَوَّرَ فيها زهوُهُ فاعتَم

بل هَل شجَتکَ الظُّن باكرةً كأنَّهُنَّ النَّخل من مَلهَم

(التبريزي،لا.ت،ج۲: ۳۴۶)

لم يقصد الشاعر من تشبيه الظعن المزينة بالنخل ما ذهب اليه الشراع القدماء من تبين أوجه الشبه بين الظعن المزينة وأشجار النخيل المحملة بالبلح الأحمر، أو الاصفر، والسعف الأخضر. بل ما قصده المرقش في النخلة بيان عناصر الأنثوية المرتبطة باستمرارية الحياة، فكان لها لقاح وحمل و نتاج. واستلهم الشعراء صورة النخلة بعامة، وجعلوها رمزاً للمرأة، فهذا أبودؤاد الإيادي يقول:

هل رأت من ظعائن باكراتٍ كالعَدَولِيِّ سَيرهُنَّ انقحامُ

و تراهُنَّ في الهوادج كالغز لانِ ما إن ينالُهُنَّ السِّهامُ

Archive of SID

www.SID.ir

نخلاتٌ من نخل بيبسانَ أينعـــ ن جميعاً و نبتُهُنَّ تُؤامُ

(نقلاً عن: الأصمعي،لا.ت:۱۶۴)

فهو يجمع بين المرأة والغزل والنخلة المخصبة ويجمعهما عنصر الخصوبة (نبتُهُنَّ تُؤام) و لعل في تعبيرة عن النخل بنون النسوة مع أنَّهُ يذكر و يؤنث ما يؤكد فكرة الأنوثة والإخصاب فتبين مما تقدم أن استعارة النخلة رمزاً لخصب المرأة، كان اختياراً موفقاً في توظيف أشياء الطبيعة رموزاً، وخاصة تلك الاشياء التي تبعث في الحياة أهل الصحراء حياة جديدة ملؤها الازدهار و النماء، ممّا يؤهل المرأة لتكون رمزاً لخصب الحياة و ديمومتها.

۲-۴-۲. رمزية البردية

لنباتات أهمية قصوى في الحياة العربي البدوي. لأنّها تدخل في كل تفاصيل ومناحي حياته ولانَّ بيئته صحراوية قفرة، أشتدت عنايته بالنباتات أشد عناية حتى وصلت الى حد التقديس والتعبد. فوصف الكثير من الشعراء الجاهلية نباتات الطبيعة وجمالها، فرأوا انوعاً متنوعة منها في بواديهم وصحاريهم، ومنها تلك الازهار والنباتات التي ذهبوا الى تشبيه من أحبوا بها وفي ضوء ذلك تلونت اللوحة الغزلية الجاهلية بألوان رمزية جديدة، استمدها الشعراء من الطبيعة كي توحي بالمرأة وجمالها ومكانتها وخصبها وعطائها. فوظفت اغلبها في مواضع الغزل والتشبيب وبخاصة البردية وزهر الأقحوان التي شبهت به الثغور. ومن ابرز تلك النباتات التي أخذت طابع الخصب هي «النبة البردية» ومن أهم مدلولاتها المتصلة برمزية الخصب(للمرأة المثال)، تشبيه ساقي المحبوبة بالبرديتين المغمورتين بالماء اي خذله، مرتوية وهذا المعنى يرمز الى معاني الخصب والقوة. وللافت وللانتباه أنَّ البردية غالباً ما توصف في الشعر بانّها مروية، نمت ترعرعت بين أشجار مسقية، على انّها ريانة، وهذا الوصف الدقيق يرمز الى صفات الليونة والطراوة والنعيم والرخاء التي تمتع به المحبوبة(المرأة المثال): وفي هذا الصدد يقول امرؤالقيس:

هَمّـــالةٌ رؤدُ خدّلجةُ كعميمةِ البردي في الدّحض [۱۱]

(امرؤالقيس،۲۰۰۲:۲۸۳)

وفي معلقته يقول:

وكشحٍ لطيفٍ كالجديلِ مُخَصَّرٍ وساقٍ كانبوب السَّقيِّ المُذلّلِ[۱۲]

(نفسه:۴۰)

وتارة رمزت البردية في الغزل الجاهلي الى الاستقامة والدقة،كما جاء في قول عبيد بن الابرص:

www.SID.ir

خودٌ مُبتلةُ العظام كأنَّها بَرديّةٌ نبتت خِلالَ غُرُوسِ

(عبيد بن الأبرص، ۱۹۹۴: ۸۷)

وحيناً رمزت للطفولة والشباب في قول عبدالله بن عجلان النهدي:

جديدة سربال الشباب كأنَّها سقيّةُ بردي نمتها غيوله

(نقلاً عن: أبي الفرج الأصفهاني، ج۱۹: ۱۰۴)

وكما رمزت ايضاً للحب الوليد في قول المخبل السعدي:

برديةٌ سَبَقَ النعيم بها اقرانها وغلابها عظم

(نقلاً عن: ابن قتيبة،لا.ت، ج۲: ۷۱۷)

خلاصة القول إنَّ دلالات البردية في الغزل الجاهلي لم تختصر يوماً على المعني المتعارف والسائد لهذه النبتة بل تطورت ايحاءاتها ورموزها حتى اُخذت ترمز الى المرأة المثال المتسمة بالخير والنماء والخصب والطفولة والحب والاستقامة والدقة والليونة والظرافة.

۲-۵. رمزية التغزّل بالألوان

احتل اللون وأبعاده الفنية في الشعر الجاهلي حيزاً كبيراً، فقد أكثر الشعراء من ذكر الألوان حتى بدت صورهم لوحات فنية رسمت بريشة فنان مبدع تمكن من محاكاة الطبيعة من جهة حيثُ جسَّد ادقّ التفاصيل لرسم الصورة المثال مستعيناً بالنحت والرسم فأخذ من النحت التجسيد ومن الرسم التلوين. فالشاعر أتخذ من اللون والتعبير به،خير وسيلة لبيان إحاسيسه بجمال المرأة التي عشقها وهام بها وسَطّرَ صوراً رائعاً تصف جمال (المرأة المثال)، معظمها مستمدة من تراث ديني عريق ورسوبات اسطورية قديمة. ومن ابرز تلك الألوان التي اصفاها على محبوبته هو اللون الأبيض.

۲-۵-۱. اللون الأبيض

فاللون الأبيض عُرِف عبر العصور بدلالاته الإيجابية، دلالات الحسن والجمال عند المرأة والسيادة وعلية القوم عند الرجل ومن الدلالات المحببة لهذا اللون اذا كان في(الاسنان- الوجه- العين- واللباس) وقد كُثِرَ هذا الوصف (للإسنان المرأة) ليدل على نظافته المرأة وطيب رائحة فمها ليطيب للشاعر اللهو معها دون تكدير. وفي ذلک يقول طرفة بن العبد:

بادنٍ تجلو اذا ما ابتسمت عن شتيتٍ كأقاح الرمل غُرّ

(طرفة بن العبد،۱۹۹۲: ۴۱)

Archive of SID

www.SID.ir

فالشاعر أظهر جمال أسنان محبوبته حيث شبهها بالأقحوان النبات في الرمل، إذ يشتد بياضاً مع أشعة الشمس المنغمسة من الرمال، وزاد تأكيد اللون بلفظ (غر) ومن البياض المستحب في المرأة المثال،«بياض البشرة» وهو للمرأة صفة جمال وعفة شرف فكانت المرأة دائماً بيضاء وقد شبهت المرأة فيها «بأدم الظباء» والنعاج والأرام واللجين وبيضاء درية القبل، وبيضاء ناعمة مثل المهاة، وبيضاء صافية وغير ذلک من الأوصاف. وقد شبهت المرأة البيضاء بالدُمي هي تماثيل عاجية يضرب بها المثل في الحسن والجمال«وكانت العرب تقدم لها الضحاياو تقدسها (نصرت،۲۰۰۳: ۱۰۷) فهذا التشبيه جاء من باب القدسية المشتركة بين الدُمي والمرأة كما جاء في التشبيه الأعشى:

وقد أراها وسط أترابها　　في الحيّ ذي البهجة والسامر

كدمية صُـوِّر محرابُها　　بِمهبٍ في مـرمـرٍ مائرِ

(الأعشى،لا.ت:۹۳)

فالشاعرشَبَّه محبوبته بالدمية التي يحيط بها المتعبدون التي شُدّت من الذهب والمرمر فالدمية وماتفرزه من معطيات كالقداسة والبياض، يدَّل على نصاعة وشرف المرأة المثال وقُدسيتها. ولا يقتصر تشبيه المرأة لبياضهابالدمية بل ثلة من الشعراء شبهوا بيضاء المرأة المثال بالشمس وأهم معبودات العرب قبل بزوغ فجر الاسلام، ومهاجاء في ذلک قول النابغة: «بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها» فالشاعر يصف المرأة بالبياض والإشراق المتمثل بالشمس وهذا التشبيه إن دَلَّ على شئ فانّما يدلُ على قداستها ونقاء جمالها. ولم يكتفي الشعراء بالتشبيه بياض المرأة بالشمس بل امتد ليشمل القمر و المصباح. فالجدير بالذكر أنَّ اللون الذي تغني به العرب ليس الأبيض الخالص بل الأزهر الذي شاب بياضه شئ من الأصفر أو الأحمر ايّ لون كوكب الزهرة الهة الحب والجنس عند العرب، و هذا ما حدي بأمري القيس على وصف معشوقته بالبياض الذي شابه اصفرار لانّ هذا اللون يرمز الى القيمة الجمالية العالية للنساء ويكشف النقاب عن علاقة المرأة المثال بالدّرة الرمز. فيقول:

كَبِكرِ المقاناةِ البياضِ بصُفرةٍ　　غَذَاهَا نَمِيرُء الماء غَيرُ محلَّل[۱۳]

(امرؤالقيس،۲۰۰۲ :۳۴)

وهذا التشبيهات مما تشئُ بأرتباط المرأة(المثال) بتلک الأجرام السماوية المقدسة وبالتالي تدل على إنَّ المرأة المثال بهذا الصفات هي رمز من رموز تلک المعبودات. فاختيار اللون الابيض للمرأة

Archive of SID

www.SID.ir

المثال من قبل الشعراء يحمل في طياته دلالات عدّة، منها: الترميز الى الصحة والسلامة عن الطث والصيانة واستر وصفاء اللون ونقائه والخصب.

۲-۵- ۲. اللون الأسود

الأسود لون مُحبب للنفس حيناً وبغيضاً وذلک حسب موطنه وسياقه الذي يقع فيه فهو مُحببٌ في الشَعر واللعين واللثة والشفاء للمرأة المثال التي تغني بها الشعراء. ومن الامثلة التي صاغها الشعراء في الشَعر الأسود (للمرأة المثال) قول امرؤالقيس:

وَفَرعٍ يَزينُ المتنَ أسوَدَ فاحمٍ أثيثٍ كقنو النخلةِ المتعثكل[۱۴]

(نفسه: ۴۳)

فأضاف توظيف السواد في شعر امرؤالقيس بعداً احصابياً حيثُ أن «السواد مرتبط في التراث العربي بالاخضرار والخصب، ويلحظ استخدامه كلمة أثيث لوصف الشعر، وتعني الكثير النبات، والمرأة هي الأرض المخصبة الخضراء، وشعرها النخلة المتداخلة جذوعها، رمز الحياة والخصب. الشعر الكثيف الأسود صورة جنسية ذات دلالات توحي بالحيوية والطاقة المخصبة، ترتبط هنا بصور النبات واالشجر والاخضرار، وتوحي غدائر الشعر بالغدران، فتكثف صورة المياه الجارية الإيحاء بأجواء الحيوية المتدفقة» (عوض،۲۰۰۵: ۲۰۴) ومن ذلک ايضاً قول النابغة في وصف محبوبته (المثال)

وبفاحمٍ رَجلٍ، أثيثٍ نبتهُ كالكرم مال على الدّعام المُسندِ

(الذّبياني، لا.ت:۴۲)

فهو يصف شعر المرأة بالأسود الفاحم الكثيف المسندل كأعضان الكرمة رامزاً لاخصاب(المرأة المثال). وأما لون الأسود في العين كان محبباً لدي الشاعر الجاهلي حينما يصف معشوقته لاسيما اذا حوراء العين. وتغني الكثير من الشعراء بهذا الصفة الملازمة (المرأة المثال) كقولهم: فيهن حور كمثل الظباء- حور نواعم قد لهوت بها- واوانس مثل الدمي حور العين- حور المدامع من ظباء الشام، ومن ذلک قول عبيد بن الأبرص:

واذا هي حوراء المدامع طفلة كمثل مهاةٍ حُرَّةٍ، أمِّ

(عبيد بن الأبرص، ۱۹۹۴: ۵۶)

فهو يذكر عين محبوبته بالحوراء ويشبهها بعين المهاة الشهيدة رامزاً لسوادها وسعتها.

Archive of SID

www.SID.ir

۲-۵-۳ اللون الأحمر

يعد اللون الاحمر من أوائل الألوان التي عرفها الانسان في الطبيعة وأكثرها تضارباً فهو لون البهجة ولون العنف ولون المرح ومن اكثر سمات هذا اللون ارتباطه بالدم فتختلف دلالته باختلاف موطنه، فهو في الخد والشفاه يعطي انطباع الرسامة والجمال وعلامة على الصحة والعافية والنضارة والحياء والخفر أحياناً. وتارة يجمع بين الجمال المادي والحُسن الأخلاقي للمرأة المثال كما ورد في قول عنترة:

وردفٌ لهُ ثقلٌ، وخصرٌمهفهفٌ وخدٌ بِهِ وردٌ وساقٌ خدلّجُ

(عنترة بن شدّاد، ۱۹۹۵: ۲۸)

كما شَبَّه سُبيع التيمي محبوبته بانّها بيضاء الوجه وحمراء اللثاث.

ومجالسٍ بيض الوجوه اعزة حمر اللثاث كلامهم معروف

(نقلاً عن: الصفدي، ۱۹۷۴، ۲: ۲۳۴)

وتارة اللون الأحمر يرمز الى قداسة المرأة كما ورد في قول الأعشي:

فأرادها كيف الدخو لُ، وكيف ما يؤتي لها
في قُبَّةٍ حمــراء زيــ نها، ائتلاقُ طبابهـــا

(الأعشى، لا.ت:۱۷)

فالقبة الحمراء ترمز الى السيادة والشرف، ولعل السبب في ذلك عائد الى ارتباط الأحمر بلون الدم. « وارتباط الدم بالأضاحي، فاتخاذ القبة بهذا اللون دليل على تقديم الأضاحي لهذا الشخص وطلاء المحراب بدمها ثم فيما بعد أخذ يرمز الى المكانة العالية.»(الرباعي،۱۳۴،۲۰۰۴) وتارة استعمل لون النار(الأحمر) للتعبير عن الحبّ والغرام كما ورد في قول عنترة بن شداد:

نعيمُ وصلكِ جناتٌ مُزخرفةٌ ونارُ هجرك لا تُبقي ولاتذرُ

(عنترة بن شدّاد، ۱۹۹۵: ۱۸۷)

۲-۵-۴ اللون الأصفر

لهذا اللون دلالات عدّة في الشعر الجاهلي ومنها اقترانه بالشمس فأخذ يرمز الى الزينة والطيب والسرور ومنه اقترانه بالمرض الذي رَمَزَ الى الجفاف والذبول ولاقتران هذا اللون بالشمس والذهب والطيب أخذ يرمز الى المعبود السماوي (الشمس) وكما رمز ايضاً على حد قول الذياب:«الى المجد والثروة» (ذياب،لا.ت: ۴۲) ومما استحسنه الشعراء لوصف معشوقاتهم هو«الأصفر الفاقع»

Archive of SID

www.SID.ir

الذي يجلب المسّرة للناظرين و في ذلک دلالة على «حُسن المرأة جمالها» وفي ذلک يقول الأعشى واصفاً محبوبته:

بيضاء ضحوتها وصف راءُ العشية كاالعرارة

(الأعشى،لا.ت:۷۵)

ومما رمز هذا اللون على دلالة «الطيب» قول النابغة:

صفراء كالسيراء أُكملَ خَلقُها كالغُصنِ في غُلَوائِهِ المتأودِ [۱۵]

(الذّبياني، لا.ت: ۳۷)

فقد بدت المرأة صفراء اللون لكثرة استعمالها الطيب. و لم يكتفي الشاعر بهذا القدر بل أخذ يرمز الى الثياب الصفراء بانّها تدل على الأثريا ومكانتهم السامية، وفي ذلک يقول:

تحييّهم بيضُ الولائد بينهم وأكسيةُ الإضريجِ فَوق المشاجبِ

(نفسه:۱۳)

و الإضريج هو كساء أصفر يرتديه الملوک والأشراف وهو لون يدعو الى السرور والرخاء والهدوء.

۲-۵-۵. اللّون الأخضر

اللون الأخضر يكاد ينحصر عند الجاهلي قديماً بالخصب والحياة والنبات والشجر ولون الثياب وهو من الالوان المُحببة ذات الإيحاءات المبهمة. ولّما كان الأخضر يرمز الى الخير والخصب فقد شَبَّه الشعراء الإبل التي تقل ضعن النساء بالنخيل الشديدة الخضرة للتفاؤل بمصير هذه القافلة علّها تجد الخصب وتنشر الحياة أينما اتجهت وفي هذا الصدد يقول امرؤالقيس:

أو ماترى أظعانهن بواكراً كالنخّل مِن شوكان حين صِرام

(امرؤالقيس، ۲۰۰۲: ۵۸)

فقد شَبَّه الشاعر نساء الظعن بالنخيل الأخضرالمثمر الذي أكله وهي معانٍ تدل على الخصب والخير في المرأة المثال لانّها في مخيلته الانسان الجاهلي ترمز الى الخصب والنماء وفي ذلک يقول المرقش الأكبر:

أينما كنتِ أو حللت بأرضٍ أو بلاد أحييتِ تلک البلادا

(المرقش، ۱۹۸۷ :۱۲۹)

Archive of SID

www.SID.ir

ومما ارتبط باللون الأخضر الوشم والكُحل، فالوشم لَهُ طابع من التقديس والإجلال حتى ذهب قرعان بأنَّ الوشم في لوحة الطلل يرتبط بالمرأة، لانَّ المرأة المثال هي التي تنجب، ومن ثم لها الفضل في حفظ الحياة واستمراريتها(قرعان،۲۰۰۷: ۹۶) بذلک تتم الدلالة لهذا اللون بأنَّه يرمز الى الخصب والخير المتمثل بالمرأة المثال.

النتيجة

ارتبط حضور المرأة في مسرح الحياة الجاهلية بموروثات أسطورية عديدة، فالشاعر الجاهلي كان دوماً تواقاً إلى الخلود، فرأى في المرأة المثال، امتداداً لتخليده، باعتبارها مصدراً هاماً من مصادر الخصوبة والعطاء ولذلک وقف على الأطلال وذرف الدمع و لم يختصر الأمر علي ذرف الدمع بل أعتبرها في كثير من الأحيان هي الحياة برمتها، فراح يتغزل بكل عنصر من عناصر الطبيعة الصائته والصامته،يجدفيها قاسم مشترک مابينها ومابين المرأة المثال وهذا إن دلّ علي شيء فانّما يدلّ علي مكانة المرأة الرفيعة إلتي حظيت بها آنذاک حتى وصلت إلى سُدة الحكم ودحضاً لكل الأوقاويل إلتي أنكرت دور المرأة ومكانتها لدي المجتمع الجاهلي ولهذه القيمة الجمالية للمرأة. فجاءت القصيدة الغزلية بأنماط تعبيرية واقعية ورمزية. فتنوع الحضور الرمزي للمرأة المثال والعناصر الأنثوية الأخري المرتبطة بها في اللوحة الغزلية، فأخذ حضورها في الأجرام السماوية (كالشمس والقمر) يرمز الي التقديس والجمال وفي العناصر الحيوانية (كالظبية والناقة) يرمز الى الأمومة والخصب والعطاء والعطف والحنان والتضحية والقوة، وفي الطير يرمز الى الحنين والفقد والعذاب، وفي النباتات والأشجار كالنخلة وماسواها معادلاً رمزياً للمرأة المخصبة من حيث الصفات الجمالية كاللين وغزارة الشعر واعتدال القوام و في الألوان معادلاً للأنبعاث و النماء و النعمة والرخاء وكل ذلک يفسر سّر الاندماج ما بين المرأة المثال والطبيعة،من جهة ومابين المرأة الأرضية والأمّ الكونية لأنَّ جمالها وخصوبتها نابعٌ منها وكل هذه الرموز والإيحاءات انصهرت في بوتقة واحدة لانتاج نموذجاً فنياً غزلياً أطلق عليه «بالمرأة المثال» صاحبة النماء و ديمومة الحياة.

الهوامش

۱. الأشر: المحزز وقد استعمله للأسنان. الخصر: البارد.
۲. يوم اسعدها: منازل السعود وهى عدّة.
۳. صفراء: أراد أن لونّها يضرب إلى الصفرة من الطيب؛ القطوب: القابض مابين عينه من جلد عابس.
۴. عروب: نقية كاملة. ابتسمت: كشفت عن نقابها؛ قناع: الخمار.
۵. الأرفاد:الأقداح الضخمة.

Archive of SID

www.SID.ir

۶. غراءّ: شديدة البياض؛ الرهب: الرهبة.

۷. خود: الفتاة الحسنة صاحبة الخلق.

۸. الصدّ والصدود: الإعراض؛ الإبداء: الأظهار؛ الأسالة: طول وامتداد في الخد؛ الأتقاء: الحجز بين الشيئين؛ وحرة: اسم موضع؛ الرئم: الظّبي الأبيض؛ النص: الرّفع؛ الفاحش: ماجاوز القدر المحمود من كل شيء.

۹. ناقة شمّلة: سريعة؛ الأصوص: الشديدة.

۱۰.تبالة: موضع تكثر فيه النعاج؛ الجؤذر: ولد البقرة؛ هكر: موضع.

۱۱.الخدلجة: الحسنة الساقين؛ عميمة: ما اعتم من البردي وكثر نباته؛ الدحض: الزلق.

۱۲.الأنبوب: البردي؛ السقي: النخل المسقي؛ المذلل: المسقي الذي تدلت ثمراته.

۱۳.البكر: الدّرة إلتي لم ير مثلها؛ المقاناة: الخليط؛ النّمير: الماء النامي في الجسد.

۱۴.الفرع: الشعر التّام؛ الفاحم: شديد السواد؛ الأثيث: الكثير؛ النخلة المتعثكل:إلتي خرجت عثاكيلها.

۱۵.السيراء: ثوب من حرير؛ غلوائه: طوله و ارتفاعه؛ المتأود: المتثنّي من النعمة واللين.

Archive of SID

www.SID.ir

المصادر

الف. الكتب

- القرآن الكريم.

۱. ابن حجر، أوس (۱۹۷۹)؛**ديوان**، تحقيق محمد يوسف نجم،بيروت، دارصادر.

۲. ابن قتيبة (لا.ت)؛ **الشعر والشعراء**، لبنان، بيروت، دارصادر.

۳. ابن هشام (لا.ت)؛ **السيرة النبوية**، المملكة العربية السعودية، الرياض.

۴. الإصفهاني، ابوالفرج (لا.ت)؛ **الاغاني**، العراق، بغداد.

۵. ------(لا.ت)؛ **الأغاني**، بغداد، دارالكتب.

۶. الاصمعي، أبوسعيد عبدالملک بن قريب (لا.ت)؛ **الأصمعيات**،شرح عمر فاروق الطباع،بيروت،دار الأرقم.

۷. الاعشي (لا.ت)؛ **ديوان**،مصر، القاهره، دارالمعارف.

۸. امرؤالقيس (۱۹۹۸)؛ **ديوان**،لبنان، بيروت، دارصادر.

۹. البطل، علي (۱۹۸۳)؛ **الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني**، القاهره، دارالمعارف.

۱۰. التبريزي (لا.ت)؛ **شرح المفضليات**، مصر، دارالسعادة.

۱۱. الجعدي، النابغة (۱۹۶۵)؛ **ديوان**، سورية، دمشق.

۱۲. الجواهري، محمد (۱۹۸۰)؛ **علم الفلكلور**، مصر، دارالمعارف.

۱۳. حسنين، فواد (۱۹۵۸)؛ **التاريخ العربي القديم**، القاهره، دارالنهضة المصرية.

۱۴. الخطيم، بن قيس(لا.ت)؛ **ديوان**، القاهره، دارالفكر العربي.

۱۵. الذبياني، النابغة(لا.ت)؛ **ديوان**، تحقيق، كرم بستاني، لبنان، بيروت، دارصادر.

۱۶. ذياب، محمد حافظ (لا.ت)؛ **جماليات اللون**،الأردن، دار الكندي.

۱۷. الرباعي، عبدالقادر (۲۰۰۴)؛ **الصورة الفنية في النقد الشعري**، دمشق.

۱۸. الرومية، وهب (۱۹۷۵)؛ **الرحلة في القصيده الجاهلية**، اتحاد العام للكتّاب، فلسطين.

۱۹. السواح، فراس (۱۹۹۶)؛ **لُغزعشتار**، دمشق،دار علاء الدين.

۲۰. الصفدي، مطاوع وآخرون (۱۹۷۴)؛ **موسوعة الشعر العربي**،إشراف خليل حاوي،بيروت،خياط للنشر.

۲۱. طرفة، ابن العبد (۱۹۸۷)؛ **ديوان**، شرح مهدي ناصر الدين، بيروت،دارالكتب العلمية.

۲۲. الطيب، عبدا... (۱۹۷۰)؛ **المرشد الي فهم اشعار العرب وصناعتها**، مصر، القاهره.

۲۳. عبيد بن الأبرص (۱۹۹۴)؛ **ديوان**، شرح أشرف أحمد، لبنان،دار الكتاب العربي.

۲۴. عنتره بن شداد (۱۹۹۵)؛ **ديوان**، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية.

۲۵. عوض، ريتا (۲۰۰۵)؛ **بنية القصيدة الجاهلية**، بيروت، دار البحار.

۲۶. الغنوي، طفيل (۱۹۶۸)؛ **ديوان**، تحقيق محمد عبدالقادر أحمد،بيروت،دار الكتاب الجديد.

۲۷. فون، غوستاوف (لا.ت)؛ **دراسات في الادب العربي**، لبنان، بيروت.

۲۸. فيليب،حتى (۱۹۴۹)؛ **تاريخ العرب**،بيروت،دارالكشاف.

۲۹. القرعان، فايز (۲۰۰۷)؛ **الوشم والوشي في الشعر الجاهلي**، بيروت، دارالشروق.

Archive of SID

www.SID.ir

۳۰. لبيد بن أبي ربيعه (لا.ت)؛ **ديوان**، لبنان، بيروت،دارالشروق.
۳۱. المرقش الأكبر (۱۹۸۷)؛ **ديوان**، بيروت، دار العودة.
۳۲. ناصف، مصطفى (۱۹۵۸)؛ **الصورة الادبية**، القاهرة، مكتبة مصر.
۳۳. نصرت، عبدالرحمن (۲۰۰۳)؛ **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي**،بيروت، دارالمناهل.
۳۴. –النهشلي، الأسود بن يعفر (۱۹۷۰)؛ **ديوان**، تحقيق نوري حمودي القيسي،بغداد، مطبعة الجمهورية

Archive of SID

www.SID.ir

فصلنامه نقد و ادبیات تطبیقی (پژوهش‌های زبان و ادبیات عربی)
دانشکده‌ی ادبیّات و علوم انسانی – دانشگاه رازی کرمانشاه
سال اوّل، شماره‌ی ٤، زمستان ۱۳۹۰ هـ‌ش/ ١٤٣٣ هـ‌ق/ ۲۰۱۲ م

زیبایی‌های تغزّل با سمبل‌های زنانه در شعر جاهلی*

دکتر یحیی معروف
دانشیار گروه زبان و ادبیّات عربی، دانشگاه رازی –کرمانشاه
عاطی بیات
دانشجوی دوره دکتری زبان و ادبیّات عربی، دانشگاه رازی

چکیده

متن بسیاری از چکامه‌های جاهلی سرشار از اشارات و رمزهایی است که پیرامون زن وسمبلهای زنانه، سخن به میان آورده است. این چنین رمزهای شعری، دیدگاه تاریخی خاصی برای زن به تصویر کشانده است. بن مایه‌های دینی واسطوره‌ای برگرفته از تشبیه زن به طبیعت و عناصر آن، ابعاد زیبایی به آن افزوده است. تشبیهات طبیعی که برای «زن نمونه» در شعر جاهلی انتزاع شده است. زن را سرشار از رمزها و نمادهایی کرده است که در درون خود دلالتهایی همچون؛ باروری، رستاخیزی، پاکی، زیبایی و غیره جای داده است. این مقاله در پی تجزیه و تحلیل رمزها و دلالتهای پنهانی غزل شاعر جاهلی از هستی وعناصر آن، به ویژه زن است.

* تاریخ دریافت: ۱۳۹۰/۷/۱۹ تاریخ پذیرش: ۱۳۹۰/۱۱/۲۵

رایانامه‌ی نویسنده مسئول: Ymaerof@razi.ac.ir

Archive of SID
www.SID.ir